المـــــرأة فـى شـــــعر المتنـــــبى

بيـــــــن

الرمـــــــــز والـواقـــــع

تأليـــــف

دكتور/ محـــطفى أبـــو الـعـــــلا

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بعد قرأتي لشعر المتنبي بصفة عامة ولما جاء حول المرأة فيه بصفة خاصة أستطيع أن أزعم زعما لادخل فيه لأقوال الدارسين والباحثين لشعر المتنبي بقدما هو استنتاج شخصي قد اختلف فيه مع بعضهم أحيانا واتفق مع البعض الآخر أحيانا أخرى . الا أنه في النهاية ترجمة حقيقية لما جاء من شعر حول هذا الموضوع في ديوانه - من وجهة نظري على الأقل - هذا الاستنتاج يتلخص في أن للمرأة في شعر المتنبي استخداما دلاليا جاء هذا في جل شعره حول المرأة كما جاء الحديث عنها حقيقيا في بعض هذا الشعر على الرغم من محاولاته اخفاء هذه الحقيقة لأمور تتعلق بشخصيته وحياته معا . كما أن هذا التناول - حقيقيا أم دلاليا - جاء في بعض الأحيان بمعزل عن الآخر وفي الكثير منها متداخلا معه دونما انفصال، وسوف نعالج هذا المعنى كما جاء عند المتنبي جاعلين ديوان الشاعر هو الحكم في كل مانقول والقاعدة والأساس لكل استنتاج .

فهو ينكسر ويبرئ نفسه وقلبه من التعلق بالمرأة لما عشقن إلا غدرة وطماعة ولذلك نهو لايحبهن ويبتعد عنهن بما هو خير . لأطراف القنا والمعارك وساح القتال

وللخود مني ساعة ثم بينها ... ثلاثة الى غير اللقاء تجلب[1]

وما العشق إلا غدرة وطماعة ... يعرض قلب نفسه فيصاب

وغير فؤادي للغواني رميمة ... وغير بناني للزجاج ركاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة ... فليس لنا الا بهن لعاب

وهذا في رأيي - امتداد لما كان عليه المتنبي من كبرياء وعظمة يجد أنه من العيب بمكان أن يتعلق بالنساء ويمارس عشقهن بما فيه من ضعف وخور يصيب العاشق وما فيه من قهر وظلم للمحبوب وهذا مالايتفق وشخصه الذي لايقبل بالقوة بديلا ولا عن الكبرياء والعزة تحويلا حتى ولو كان الحب أو المرأة المحبوبة له نحلا فهو يفرض على نفسه الصوم

(١) ديوان المتنبي - شرح البرقوقي ط دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٩ ج ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

عن ممارسة هذا الحب أو الظهور بمظهر المحب الوامق الولهان المحتسى بحبيبه . فهذا هو الضعف بعينه فهو الرجل ذو الشخصية الفولاذية والقلب الصخري ، شهوته الرماح وحبه المعارك والقتال . ومن هنا يتضح لي موقف الشاعر من المرأة واستطيع أن أوجزه - على ضوء شعره - في هذا المفهوم وهو أن المتنبي انسان ذو شخصية ونفس وطموح لها أهدافها البعيدة السامية ، رأى أن العشق للمرأة فيه مايعوقه عن تحقيق مجده المأمول والذي لايرضى به بديلا ، فصام عن هواها وابتعد عن مزاولة عشقها - كلما أمكنه ذلك جل حياته - غير أنه كانسان - وهذا زعمي - تتورط في المحظور من حيث لايدري في بعض مراحل حياته - لاسيما في شبابه - فاذا أفاق من غفوته عاد الى سيرته الأولى صائما عن حبها رافضا لها ، وعلى هذا فموقفه من المرأة مزدوج . شطر صريح معلن وهو المسيطر على حياته وشعره ، وشطر خفي داخلي لايظهر الا في بعض شعره ، وجاء هذا الجانب الأخير صادق التعبير متأجج العاطفة وشاركه في ذلك السمة عن الرمزي الذي كان يستخدمه للتعبير عن عاطفة صادقة تصور الجو النفسي الخاص به أثناء عملية النظم .

وباستعراض لما جاء في مقدمات المتنبي التي يتغزل فيها بالمرأة أحسست بأن هذه الغزليات انما تعبر عن ذاته وعن حياته وحاجاته والمتأمل والمتتبع لما تتضمنه هذه الغزليات من رموز يستطيع أن يضع يده ونظره وسمعه على كثير مما أشار به المتنبي عن طريق هذه الرموز مما تعرض له من بؤس والآم وأتراح وأفراح وما عرض له من خطوب ونوائب وماعاناه من مشاعر اليأس والقنوط أو مشاعر الرضا والسرور أو السخط والفتور ، فلم تتحول هذه المقدمات التقليدية ومنها المقدمة الغزلية الى تقليد فني فارغ من المشاعر والأفكار كان على الشاعر أن يحرص عليه ويتمسك به على كره منه فقد ظل هذا التقليد مرتبطا بالبيئة نابضا بالحياة ، كما عمل الشعراء على أن تستمر للأشكال الموروثة والمستحدثة منه حيويتها وأن تبقى موصولة بحياتهم معبرة عن تجاربهم (١)

---

(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول د
د. حسين عطوان ط دار المعارف ١٩٧٤ ص ٢٦

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومما لاشك فيه أن لغة الشعر منذ القدم اتخذت من المرأة دلالة تشير الى معنى أشمل وأعمق وأبعد من مجرد التغزل بالمرأة أو الحديث حول العشق (فليس مستحدثا اتخاذ الأداء المتكئ على المرأة وعاطفة الحب ليبين عن دلالات أخرى بل أننا نجد القضية قديمة جدا ولعل أقدم نموذج لذلك هو نشيد الانشاد المنسوب الى سليمان الحكيم) (١) .

فنرى الشاعر يألم ويأرق اذا افتقد محبوبته . وليست محبوبته - في رأينا - سوى الدنيا وتحقيق ذاته فيها ، وفي المناصب العالية تلاءمتها لنفسه الطموح ، وللثروة وسيلة العز ، وللنصر وسيلة للمجد والتؤدة، كما أراه يسعد وينعم اذا توقع الوصول الى بغيته واذا وجد سبيلا إلى ذلك وفي الحالين حال الألم والأرق وحال السعادة والأمل نجد له شعرا صادق الغناء مصورا لدخائله ومعبرا عن نفسه بكل آلامها ومآلها بكل جموحها وطموحها بكمل ثقلها ونجاحها ولكن في ابهام وغموض يحتاج كشفه وحل رموزه الى معرفة واعية بمن هو أبو الطيب ومن تكون شخصيته (فمنهج الحب الرامز قديم تتقبله اللغة في أدائها العرفي، ولاتجد غضاضة في كونه يتجاوز هذا الأداء حدود لها ليخلق - بواسطتها أيضا - لغته الدلالية الخاصة) وهذا مايفسر (٢) أبياته في العشق التي يقول فيها :

أرق على أرق ومثلي يأرق ... وجوى يزيد وعبرة تترقرق (٣)

جهد الصبابة أن تكون كما أرى ... عين مسهدة وقلب يخفق

ما لاح برق أو ترنم طائر ... الا انثنيت ولي فؤاد شيق

فعامة الناس يفهمون من هذا الشطر الأول . شدة العشق ، وحدة الحب ، وأما العارفون بأمر المتنبي يفهمون من هذا الشطر هم (الشاعر الذي يطيل ليله ويضاعف أرقه، وأمل الشاعر الذي يملأ قلبه، ويبعد عن متناوله (٤) .

---

(١) دراسة في لغة الشعر، رؤية نقدية ، دكتور رجاء عيد ط منشاه المعارف بالاسكندرية ١٩٧٩ . ص ٦٣

(٢) نفسه جـ ٢ / ٧٣ .

(٣) شرح البرقوقي دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٩ .

(٤) مع المتنبي ص ٧٠ ط دار المعارف - القاهرة ١٩٨٠ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وأعتقد أن هذا المعنى يؤكد ماذهبت اليه في الحكم على - عشق الشاعر وطبيعته هذا العشق ، فغناؤه كما ذكر صادق اللهجة قوى النغمة ويصدر عن قلب حزين - وهذا شأن الشاعر في كل شعره - اذا أستخدم الغزل الرامز وتحدث عن عشقه الخاص به - ولبس العشق المألوف - أما اذا حاول الحديث عن المرأة وعشقه لها وتغزله فيها لمجرد تقليد لتغزل الشعراء وذكرهم للمرأة في مقدماتهم أو تضاعيف شعرهم حينئذ يقع في التكلف وتبدو في شعره الصنعة لفظا ومعنى كقوله في نفس القصيدة :

جربت من نار الهوى ماتتقي
نار القضا وتكل عنها يحرق
وعذلت أهل العشق حتى ذقته
فعجبت كيف يموت من لايعشق

وهنا يلوح لنا تساؤل : كيف كانت المرأة في شعر المتنبي ؟ أهي وسيلة أم غاية يسعى لها ؟ ولكي نجيب على هذا التساؤل علينا أن نستقرئ ما جاء عن المرأة في شعره وأن نتعمق ونستنبط مادار حول المرأة من معان ودلالات استخدمها الشاعر للتعبير والتلويح لما يريد .

(ونستطيع تلمس الجذور الأولى لاحلال المرأة رمزا اسقاطيا يكثف الدلالة ويؤطر المضمون في شعرنا التراثي اذا نحن أعدنا قراءته من جديد ، حيث نلمح من خلال عطائه صورة لقناع يشف عما تحته ، وقد ندرك بتأمل وتواتر مايورده صاحبه ولكنه على كل حال يمثل احساسا قديما بحاجة الشاعر الفنيه لاتخاذ منحنى آخر بواسطة الاتكاء على الدلالات المستنبطه من عرفه اللغوى المتحد من المرأة صورة فنيه) (١) .

وقد أتاحت - لي قراءة المتنبي الوصول الى حقيقة مؤداها ان الشاعر استخدم المرأة في جل شعره عنها كمعادل رمزى . فرأيناها

---

(١) دراسة في لغة الشعر . د. رجاء عيد ص ٦٩ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

معادلا لأخلاقه ومعادلا لقصته في الحياه ومعادلا لانتمائه السياسي الى غير ذلك من الدلالات التي ذكرنا أهمها . وقد تأتي كل دلالة من هذه الدلالات مستقلة عن الأخريات وقد تأتي ممتزجة بعضها ببعض في تركيب واحد لايستطيع النقاد الى أبعاده الا البصير باستخدام الشاعر لهذه الأداه . وهو حين يتحدث عن المرأة متغزلا في مقدمات قصائده يستخدم الحديث عن الحب كمعادل رمزي لمعان متعددة تختلف قليلا أو كثيرا عما قد يفهم من التركيب المطروح في الشعر أو التعبير المباشر . .

فقد رأى دانتي أن الحادث أو القصة التي توحي بالقريض لها في نفس الشاعر مغزى خلاف مايفهم من الوقائع العادية التي تضمنتها . فذلك الحادث قد تملك عقل الشاعر لأنه رأى فيه رمزا لوحي باطني يدل على أدق وأعمق معاني الحياة) (١) .

فلو تأملنا ماجاء عن حديثه عن المرأة والعشق في مقدمة هذه القصيدة لأدركنا استخدامها كمعادل رمزي حين نقول :

ليالي بسعد الظاعنين شكول ... طوال وليل العاشقين طويل
يبين لي البدر الذي لا أريده ... ويخفين بدرا ما اليه سبيل
وما عشت من بعد الأحبة سلوة ... ولكنني للنائبات حمول
وما شرقي بالماء إلا تذكرا ... لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنة فوقه ... فليس لظمآن اليه وصول
أما في النجوم السائرات وغيرها ... لعيني على ضوء الصباح بديل

فهل البدر الذي أخفته الليالي عنه هي المحبوبه كما فهم البعض ؟ أرى أن الشاعر قد استخدم هنا البدر وتلك الليالي كمعادل رمزي لحياته ومافيها من ملل ويأس من تحقيق الآمال (ولم لايكون هذا البدر شيئا آخر غير هذه الفتاة الأعرابية ؟ ... لم لايكون البدر رمزا لهذه الآمال النائية وهذه الهموم البعيدة التي تاقت اليها نفس الشاعر منذ أحس الحياة

---

(١) قواعد النقد الأدبي تأليف لاسل آبركرمبي أستاذ الأدب الانجليزي بجامعة لندن ترجمة محمد عوض ١٩٣٦ ، لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٦ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وتدور على الاحباط وتلقى القبض ما أنفق من جهاته دون أن يمنحها أو يمنحو
منها(1) . . . في تحاول زيارة جهاته وأكتوبره أوصيا من عاد ورد طوحات
ظلما طفر بسمعها لبائسة جاهدا مما جعل البدن والعلل يجثم على الأب كما
ان أهل العاشقين الطويل مو أهل عاشقي المجد وقتال الكبار ، و
يعني تلك الطموح التي تكابد الكثير من أجل الوصول إلى بغيتها مما طال
ليلها وكثرت الموانق في طريقها وقد جاءت هذه المعاني متداخلة بعضها في
آخر بل التعبير عن بعض الاقتباط بسبب بعض الاشتعارات التي كان يحاكيها
جيش سيف الدولة غير أن هذه الاشتعارات وذلك الشعور بالانتماء
يحوطه أيضا حوله من المستقبل مل يشك في استمرار هذه الأرواح وبتوقيع الأشراح
هذا بالرغم الشاعر (بالماء) الذي يناول به أهل الحمين)

ومن طريق المحاول الثرمي نستطيع أن نلمح كيف كانت الحالة
العراقية تحدرا مما يجعل بنفس الشاعر وعقله وكيف اجتمعت هذه العاديات
والحضر وماوراء هذه بتلك من أثر في حياته ووجد أنه كتكوثت بالأعرابيات
والبدويات والذي جعله - عادة - في القصائد التي مدح بها الأعاجم دون غيرهم
من العرب مما يشير إلى حنينه لما في بيئته العربية (التشبيب بالبدويات
كان رمزا اتخذه أبو الطيب ليمارس فيه رحلة ذهابه تنقله إلى محاري
العرب بباديتهم وقيمهم وأعرافهم)(2) . نلمح ذلك في مثل هذه القصيدة
التي يقول فيها :

من النجاذر في ذي الأمارين	حمر الحلي والمطايا والجلاليب
ما أوجه الحضر المستحدثات به	كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بقطريه	وفي البداوة حسن غير مجلوب
أبدى لطيات لا ما عرفن بها	مقبل الكلام ولا مقبل الحواجيب
ولا يزرن من الحمام ما علمت	أو راكبين صهيلات العراقيب

---

(1) مع المتنبي ص ٢٢٩ - ط دار المعارف ١٩٨٠
ط دار المعارف ١٩٦٠ .

(2) في ذكرى أبي الطيب - عبدالوهاب عزام ص ٢١٩، ٢٢١ - ط دار المعارف
١٩٦٨ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

هذا القول ومانيه من آداء وجداني مفعم بحرارة العاطفة يصدق المشاعر ماهو الا معادل رمزي لدلالات متحدة ومتداخلة كان يحيشها ويهرب اليها بهذه الرمزيه نتيجة للظروف النفسية التي كان يعانيها تحت قهر كافور بمصر . فهو يشير الى حالته في الماضي والحاضر . محتفزا بهذا الماضي وأصالته نادما عليه . رافضا لحاضره بما فيه من زيف وغدر وخداع كما أن (أوجه البدويات) رمزا لبادية الحجاز ومالها من تبجيل في قلوب ووجدان كل شيعي . (فتشبيهه بالبدويات يعيد الى الذاكرة الحجاز وأماكنه المقدسة ، ويذكر في شعر الشيعة والمقصورة) (١) ومن هنا كان تشبيه بالبدويات معادلا لانتمائه السياسي . كما أن العرب وباديتهم التي يذكرها ويستعيد ذكراها بين الحين والحين لاسيما من طريق التغزل بالمرأة العربية البدوية ، ومامي الا أخلاقيات وأعراف هؤلاء القوم التي يتحلى بها ويعتز بانتمائه بها ويرفض أن يوسم سواء شرق أو غرب ذهب الى مصر أو رحل الى شيراز .. (فالشاعر مهما يتنوع المكان ويختلف الزمان يحمل همومه وطموحاته التي تنتصب أمامها العقبات الحياتيه مما يجعل أداءه الشعري يكتنز في داخله تلك الهموم وهذه الطموحات . ويدفع لغة الشعر لتصبح معادله نفسية تمتد جذورها في تربة همومه الذاتيه ، لكأن حديث الحب انما هو حب لتلك الطموحات التي تنتصب أمامها تلك المعوقات ، ولذلك سرعان ما يمتزج هذا الحب بالحزن مباشرة تحس ثقله الأداء من الغزل اللاهي الى تعرية باطنة للشاعر ومايثقله من متاعب ويدميه من مصاعب) (٢) .

ويقول في مطلع قصيدة بعث بها الى سيف الدولة من العراق :

مالنا كلنا جوى يارسول	أنا أهوى وقلبك المتبول
كلما عاد من بعيث اليها	غار مني وخان فيما يقول
أقسمت بيننا الأمانات عينا	وخانت قلوبهن العقول
زودينا من حسن وجهك مادام	فحسن الوجوه حال تحول

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي . شوقي ضيف ١٩٦٠ ص ٢٤٤

(٢) لغة الشعر . د رجاء عيد ص ٧٢ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وصلينا فصلك في هذه الدنيـــــا ... فان المقام فيها قليـــــــل
من رآها بعينه شاقه القطـــــآ ن ... فيها كما تشوق الحمـــــــول

فمن رؤيتي لهذه البداية الغزلية لقصيدته التي كتب بها إلى حاكم الدولة من الكوفة عام ٣٥٢ هـ بعد أن وصلته هديته ، أرى في طيها نوع مـــــــن العتاب الممزوج بالأمل فيما أمل فيه سالفا في كافور حاكم الدولة ولم يظفـــــر به فاعتذره ولاعتد كافور ، فالمرأة هنا معادل لآماله التي خابت وحبت غير أنـــــه مازال يخشى عيونه الذين يقفون له بالمرصاد في كل مكان ، يحولـــــــــون بينه وبين رضا سيف الدولة ، وأزعم أن هذا المعنى يبين عن موقـــــــف الشاعر من الأيام المتغيرة .

(ولعل المتنبي قد أبان موقف الانسان وحيرته تجاه التصميطـــــــر في قوله وكيف يتكفف الانسان على نفسه جائر الحس أسام مايبوء ولايتحقق ما لايبوء وهو متحمن) (١) هذا المعنى كما في قوله :

أود من الأيـام مـا لاتـــــــوده ... وأشكو اليها بيننا وهي جنـــده
يباعدن حبا يجتمعن ووصـــــله ... فكيف بحبا يجتمعن وصـــــده
أبى خلق الدنيا حبيبا تـــــوده ... فما طلبي منها حبيبـا تـــرده

فهو في الواقع لايقصد المرأة المحبوبة وانما يقصد تلك الآمال التي يتطلـــع اليها دون جدوى حيث تعترضها العقبات والمخاطر لتحول بلينه وبين الوصـــول اليها مما أشاع الحزن والأسى في نفســـه .

واذا نظرنا بعمق في تغزله في هذه المقدمه نلمح كيف يستخدم الشاعر المرأة المحبوبة للتعبير الرمزي عن آماله وطموحاته كما أنها الدنيا، دنيـــــاه التي لايفوز فيها بما يأمل الى غير ذلك مما سنتبينه بعد القراءة الواعيـــــــة لهذه المقدمة .

لدنياك من ربع وان زدتنا كربـــا ... فانك كانت الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنـــا ... فؤادا لعرفان الرسوم وذلـــــــــ

---

(١) لغة الشعر ص ٧٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

نزلنا من الأكوار نمشي كرامـــة ... لمن بأن عنه ان لم به ركبـــا

نذم السحاب الغر في فعلها بـــه ... ونعرض عنها كلما طلعت عتبا

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبـــت ... على عينيه حتى يرى صدقها كذبا

وكيف التذاذي بالأصائل والضحـى ... اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا

ذكرت به وصلا كأن لم أفز بـــه ... وعيشا كأني كنت أقطعه وثبـا

وفتانة العينين قتالة الهـــوى ... اذا نفحت شيحا روائحها شبا

لها بشر الدر الذي قلدت بـــه ... ولم أر بدارا قبلها قلد الشهبا

فياشوق ما أبقى ويالي من النـــوى ... ويادمع ما أجرى ويافلب ماأصبى

لقد لعب البين المشت بها ولـــي ... وزودني في السير ماذود الضبـــا

فشمسه التي كانت وتبدلت هي آماله التي خابت وليست - المرأة - كما يفهم ولا تفاجأ بتقلب الدنيا وأحوالها واختلافها من الصدق الى الكذب فهـــذا في الواقع هو مايعنيه من قتالة العينين وفتالة الهوى فهي الدنيا التي صـــرح بها تارة واستخدم المرأة كمعادل رمزي لها تارة أخرى وأما وصاله بها هـــو هذا الأمل الذي لاح له أحيانا وسرعان ما اختفى وليس البدر الذي قلـــد الشهبا هو المرأة بل هي آماله الكبار وهدفه العظيم الذي يسعى من أجلـــه ثم يؤكد معانيه السابقه في قوله (لقد لعب البين المشت بها ولي وزودنـــي في السير مازود الضبا) فهو يصف حاله مع آماله وليس مع محبوبته فقـــد عانى الكثير ومازال يقع في حيرة من أمره كلفته الكثير دون جدوى فهـــو عاجز عن تحقيق مآربه وبهذه الطريقة استطاع أن يجعل المرأة والحب معـــادلا لما يعيشه من حيرة وتمزق ويأس وبهذا أيضا (اكتسبت المرأة - شعرا - بعـــدا فنيا حيث توحدت مع مشاعر الاستلاب النفسي لتصبح تعبيرا عن موقف الغربـــة أو الحزن أو القلق الوجودي بأشكاله المتعددة ، أو تتأطر مع التمـــزق الذاتي تجاه الاستلاب الجمعي) [1] .

وله قصيدة لامية قالها في عضد الدولة يمدحه وقد ورد عليه الخبـــر بانهزام وهشوذان الكـــردي [2]

---

(١) لغة الشعر ص ٨٦

(٢) شرح الواحدي ص ٧٧٥، البرقوقي ص ١٥ (جـ) ، ط برلين ١٨٦١ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أثلث خانا أيها الطـــــلل ... تبكي وتسرم تحتنا الابـــــل

ثم يقول فيمـــــا :

ان الذين أقمت وارتحلـــــوا ... أيامهم لديارهـــــم دول
الحسن يرحل كلما رحلـــــوا ... معهم وينزل حيثما نزلـــــوا
في مقلتي رشأ تديرهمـــــا ... بدويد قلبت بهـــا الحـــلل
تشكو المطامـم طول هجرتهـــا ... وصدودها ومن الـــذي تصـــل
ما أسأرت في القلب مـــن لـــين ... تركته وهـــو المـــك والعســـل
قالت، ألا تصحو فقلت لهـــا ... أعلمتني أن الهـــوى شمـــل

فهو في رأيي يندب مجد العرب الغابر ومعه آماله وأحلامـــــه التي ارتحلت رغم شغفه بها وهذه المحبوبة الراحلة عن المكان هي أيـــــام العرب وأمجادهم ترحل معها كل سـرور وتغيرت الحال بأنـــول نجمهـــــم لأنه لا حسن ولا مسرة الا بعودة هذه الأيـام وتحقيق هذه الأحلام، والبـــــؤس والتعاسة في رحيلها رحيل آماله وتطلعاته نحو دولة عربية قوية ، وما البدويـــة الحسناء الا العروبة بكل معانيها وبما يرتبط بها من أمجاد وآمال هجـــــرت المكان ولم يبق منها سوى الذكريات فما تركته هو المسك والعسل ، أمـــــا هو يغارق في أحلامه وفي رحلته الذهنيه التي هرب بها الى عروبته وأحلامـــــه، تمثل بعوامـا لاسيما وهو بين الأعاجم يحس بغربة نفسية عبر عنها بهـــــــده المعادلات الرمزية :

وكثيرا مايعبر عن طموحاتـه وآماله بالمرأة أو الحسناء الحسناوات حيـــث (يتخذ من المرأة منطلقا فكريا يصب من خلاله هموم ذاته ولواعج نفسه)[1] والتي سببتها تلك العوائق التي حالت دون الوصول الى الهدف وذلك كمـــا في قوله :

بأبي الشموس الجانحـــات غواربـــــا ... اللابســـات مـــن الحريـــــر جلابيـــا

---

(1) لغة الشعر ص ٧٤

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الناعمات الفاتنات المحييات

المبديات من الدلال غرائبا

حاولن تفديتي وخفن مراقبا

فوضعن أيديهن فوق ذرائبا

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا

من بعدما أنشبن في مخالبا

واذا نظرنا الى قوله في أحد المطالع الغزليه :

كم زورة لك في الأعراب خافيه

أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب

أزورهم وسواد الليل يشفع لي

وانثني وبياض الصبح يغري بي

فهي لم تكن زورة للمحبوبة ليلا حيث يستره الليل ومغادرة لمكانها وقت الصبح بل هذا المعنى يتضمن غزلا رمزيا بعيدا كل البعد عن المرأة وليس فيها سوى الرمز فالمرأة المحبوبة هي آماله المرجوة التي يحمل من أجلها ليل نهار مع مافي ذلك من مخاطرة قد تكون هذه الآمال الثورة وقد تكون الهروب من مصر وهو في كل أحواله يرى في الليل ستارا له ولخططه عن الرقباء وفي النهار خوف وافشاء لسره . وهذا قد يعني حنينه الى حياته في شمال الشام حيث البداوة أغلب من الحضارة وحيث البأس أظهر من اللين وحيث المخاطرة والمغامرة والتعرض للمكروه، وكأن الشاعر قد ضاق بهذه النعمة الهادئة وهذا الخفض الآن في مصر ، وشاقه صليل السيوف وصهيل الجياد، ولكنه لم يستطع أن يجهر بما يجد من ذلك (١) .

والمقدمة الغزلية التالية تشي بما في نفس المتنبي من حيرة وبأس في الوصول الى بغيته مستخدما في ذلك المرأة والحب كمعادل موضوعي لما يقصد اليه حيث يقول في مقدمة مدحته لعضد الدولة أبي شجاع ويذكر هزيمته وهشودان :

---

(١) مع المتنبي ص ٢٠٠

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أزائـــر ياخيـــال أم عائـــــــــــد
أم عنـد مولاك أنـــــــــــى راقـــــد

ليس كما ظـــن خشـــــية عرضـــــــت
تجلتني فـــي حلالهـــــــا قاصـــــــد

إذا خيالاتـــه أطـــــــفن بنـــــــــا
أضحكـــــــه أنـــــى لهـا حامـــــــد

لاتعرف العيـــن فـــــرق بينهمـــــــا
كل خيـــــال وصـــــاله نائـــــــد

زيـــدي أذى مهجـــتي أودك مســـــوى
مأجمـــل النـــاس عاشـــق جاحـــــد

مابـــــال مـدى النجـوم حائـــــرة
كأنهـا العمى مالهـــــــا نائـــــد

فهو ليس كما يقول بعض النقاد بأنه تشبيب وغزل وأقبح الغزل ما وصف فيه وذكر بالموت في أثنائه (وكل خيال وصاله نافـــد) - فهـــو في ظني- لم يخرج عن جوه النفسي الذي ضمنه سائر مقدمته الغزلية، والذي تمثل في حيـــرة نفس الشاعر الدائمة وراء أمـل ووراء حقيقة يائس من الوصول اليهـــــا- تطوحاته كبيرة وليله طويل لايستطيع الوصول الى شئ ســوى الطيف والخيـــال الذي سوف يبدد ويتلاشى آماله نجومه حائرة لاتتقدم ولاتتحرك كطموحاتـــه اليائس من تحقيقها وارآؤه اليائس من وصولها وفي هذا البيت الشاعل فيه :

كئيبا توقانـــــي العواذل فـــي الهوى
كمـــا يتوقـــى ريض الخيـــل حاذمـــه

فليس المقصود - في ظني - أنه عاشق عنيف ، محب خشن الـــــى حبه، لايحفل بتقصير صاحبيه عن اعانته - فقـــط - بل (يصور نفسه أمـــير الدولة مستخدما الحب رمزا لما يبغي ويعطيه فكرة من أخلاق هذا الشـــاعر الذي يقف الآن بين يديه مادحا ويريـد أن يكون أثيرا عنده ومقصورا عليه - كما أنه - ينذر أصحاب سيف الدولة هؤلاء الشعراء والأدباء وينبئهم بأنـــــه ليس من اليسر والسهولة بحيث ينتظرون أو يرجون، وانما هو نرس جامـــــح

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

عنيف وهذا يعني أنه برغم حرصه على الاتصال بسيف الدولة لايلقى نفسه عليه إلقاء ، ولايظهر التمالك على القرب منه وانما هو يدنو حذرا محتاطا مشترطا لنفسه . (١)

ويستخدم المرأة أيضا في بعض شعره بمدلولها المألوف ومعناها الصريح : فعلى الرغم من انتشار وشيوع استخدام المتنبي للمرأة والحب استخداما رامزا في شعره الا أنني لست مع من يعمم مثل هذا الحكم على كل شعره حول المرأة ويجعل من المرأة وسيلة فقط للتعبير عن غيرها من المعاني والمدلولات كما أنني لست مع من يعمم الحكم بتكلف المتنبي في تغزله بالمرأة وتغلب المنطق والعقل عنده في هذا الجانب على العاطفة - وان وجد مايبرر هذا الحكم في القليل من شعره - حيث أرى عكس هذه الاحكام في حديثه وتغزله بالمرأة فيحس القارئ لمثل هذا الشعر بحرارة العشق والوقوع فيه وصدق مشاعر الحب وممارسته كقوله . (٢)

شآمية طالما خلوت بها
تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطني
وانما قبلت به فاها
فليتها لاتزال آوية
وليته لايزال مأواها
كل جريح ترجى سلامته
إلا فؤاد دهته عيناها

وهذا - في رأيي - لايتعارض مع القول بأن (غزل أبي الطيب من النوع الوقور المقرون بالعقل والشعور العميق لأنه تعبير عن عاطفة انسانية عريقة ولدت مع أول انسان في الوجود وتكاد تكون سر العالم ومن حق هذه العاطفة أن يمارس التعبير عنها كل ذي شعور وخاصة الشعراء . (٣)

---

(١) مع المتنبي ص ١٩٢ .
(٢) المتنبي بقلم المحاسني ط دار المعارف سنة ١٩٨٠ .
(٣) المتنبي بقلم المحاسني ط دار المعارف سنة ١٩٨٠ ص ٧٥

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومما يشير بوضوح لممارسته لحب حقيقي وعفيف ماجاء على لسانه معبرا عن مشاعر حب عذري طاهر يربطه بمحبوبته طالما أفنته بحبها يقول :

جهد الصبابة أن تكون كما أرى
عينٍ مسهدة وقلب يخفق
ما لاح برق أو ترنم طائر
الا انثنيت ولي فؤاد شيق
جربت من نار الهوى ما تنطفي
نار الغضا وتكل عما يحرق
وعذلت أهل العشق حتى ذقته
فعجبت كيف يموت من لايعشق

فاذا أمعنا النظر في هذه الأبيات لتبين لنا أنها صادرة عن تجربة حقيقية عبر عنها بصدق ، ولاتضح لنا بجلاء أن المتنبي (شاعر غزل من الطراز الأول صادق الحب لطيف التعبير ، يحلل وثاقا لعلم النفس التحليلي خواطره وشعوره ويمارس مع أحبائه ضربا من الهوى الصافي العفيف الأفلاطوني (١) وكيف ادن نفسر هذا الغزل :

الام طماعية العاذل ... ولا رأى في الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم ... ويأبى الطباع على الناقل
وانى لأعشق من عشقكم ... تحولي وكل امرئ ناحل
ولو زلتم شم لأبكتكم ... بكيت على حبي الزائل
وهبت السلو لمن لامني ... وبت من الشوق في شاغل

أهذا تقليد فحسب ؟ أهو يتكلف الغزل ؟ أهي مجرد مقدمة لقصيدة ؟ أعتقد أنه من الصواب أن نتحرى الحقيقة (وألا ننسى أبياته الغزلية كلها بمحاكاة الأصول الشعرية السائدة في المديح وافتتاح القصائد شئ من الصدق فيها يمنعنا من ذلك . (٢)

---

(١) المتنبي بقلم زكي المحاسني ط دار المعارف سنة ١٩٨٠ ص ٧٢ جلال الخياط

(٢) المثال والتحول ص ٨٥ ط ١٩٧٦ دار الحرية ببغداد .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومن خير مايشي بحقيقة حبه وواقعية غرامه وصدق تعبيره عن حـــــــــدة

وذلك مـــده الأبيـــــــات :

القلب أعلم باعـــزول بدائـــــه	وأحق منك بجفنه وبمائـــــه
أ أحبـــه وأحب فيه ملامـــــــة	ان الملامة فيه من أعدائـــــه
مهلا فان العذل من أمـــقامـــد	وترفقا بالسمع من أعضـــائه
لاتعذل المشتاق في أشـــواقـــه	حتى يكون حشاك في أحشائه
ان الحب مضرجا بدموعـــــــه	مثل القتيل مضرجا بدمـــائه

وأيضا هذه الأبيات لايستطيع الناقد الدفاع بما فيها الا أن يحكـــــــم على قائلها بأنه محب مغرم بالنســـاء مجرب لمن أغناه عشاقهن وشغلن بغرامهن والتعلق بهن وهذا مثل لذلك :

كم قتيل كما قتلت شـــهيد	ببياض الطلى وورد الخـــدود
وعيون المها ولاكعيـــــون	فتكت بالمتيم المعمـــــود
ورد الصبا ايـــام تجربـــــر	ذيولي بدار اثاله عـــــوسي
عمرك الله هل رأيت بـــــدورا	طلعت في براقع وجـــــود
راميات بأسهم ريشها الهـــدب	تشق القلوب قبل الجلـــــود
يقرئان من نحسي وشـــــات	من فيه أحلى من التوحيـــد
ذات فرع كأنما ضرب العنبـــر	فيه ماء ورد وخـــــــود
اهل مابي من الضنى بطـــــل	صيد بتصحيف طرة وبجيـــد
كل شئ من الدماء حـــــرام	شربه ماخلا دم العنقـــــود
ماعليهما ندى لعينيك نفســـي	من غزال ووطفاء في وتليـــدي
شيب رأسي وذلتي وتحولســـي	ودموعي على خوالك شـــهود

وفي قصيدة أخرى يعترف بصراحة وبأدلة لاتقبل الشك علـــــى حبه لخاصر قلبه منذ الصبا وكذا على دراية بما للنساء من صـــفات خلقيـــــة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

اذا غـــدرت حسناء وفـــت بعهدهـــــا

فمن عهدهـــا أن لايـــــــدوم لهـــا عهـــــــد

وان عشـقت كانـــت أشـــد صبابـــــة

وان فركـــت فاذهـــــب فمافركهـــا فقيـــــد

وان حقـــدت لم يبـــق فى قلبهـــا رضـــــا

وان رضـيت لم يبـق فى قلبهـــــا حقـــــــد

كـذلك أخـــلاق النســـــاء وربمـــــا

يضل بهـا الهـــــادى ويخفى بهـــا الرشـــــد

ولكـن حبـا خامـــر القلب فى الصبـــــا

يزيـــد على مر الزمـــــــان ويشـــــــتد

بل ذهـب الى أبعـد من ذلـك حيث صـرح - على غير المعروف عنـــه- بتفضيله لصحبة الغيـد الأمالـيد عن سيفه الذى طالمـا على حبه للنساء فقال :

وكـان أطيـب من سيفى مضـــاجعـــــة

أشـــباه روقـــه الغيـــــد الأماليـــــــد

وقـد جاءت معانـى الغزل ومايتلاءم وشخصيته ومـاطبـع عليـه من مشـــاعر وأحاسيس فجاء غزله بالمرأة فى أكثر الأحيـــان يفيض رقة وشفافية وجـــاءت معانيـه معبـرة عن صـدق عاشـق حقيقى لهـا يعرف كيف يبث مشـاعره وعـــن غـرام محب لهـــا ينفث آلامه وأنينه . ولا أريـد أن أعيـد قـــولا مكـــــررا حول سـرقة المعانـى فى شـعر المتنبى عامة وحديثه عن المرأة والحب بصفة خاصة فقـد ألفت وخصصت له المصنفـات والدراسـات التى لاحصـر لهـا من الأقدمـــين والمحدثين فديوانه الواسـع العميق ملئ بالمعانـى التى تقتـرب أو تبتعـد عـــــن معانى السابقين أو المعاصرين بدرجات متفاوتـه مما هيأ الوجـود أو الظهـور لهـــذه الدراسات حول معانيـه فى مختلـف أغراض شعره وموضوعاته .

وعلى الرغـم من تعدد الآراء تبعا لتعـدد الدارسين لهـذا الجانـب فى شـــعره الا أننى أجد نفسى مطمئنـا لمـا قالـه بعضهم (فتكرار الشـاعر لبعـض المعانـى قـــد

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يدل على امتلائه بها وانشغاله بأمرها - حتى لنستطيع أن نرى فيها أنكساره الأساسية ، وإذن فليس التكرار دلالته ، وتكرار بعض المعاني قد يدل على اهتمام الشاعر بها أو لموقفها بنفسه) (١)

ويبدو استخدامه لهذه المعاني المكرورة الأداة ، الذاتية التجربة في تشبيه محبوبته بالشمس والبدر ويوصف بالسمام القاتلة أو على كالبقرة الوحشية أو الظبي الشادن ، وعلى كغصن البان لينا وكالقمر ضياء ، وكالسموم فتكا .. الخ وهذه مقاييس الجمال الحسية والصفات المثالية للمرأة عنده كأدنى وهو قريب من المقاييس السائدة جميعا عند (أغزل المقاطع كسائر الغزل العربي- يتجه الى المحسوس والمشاهد من جسم الحبيب ، ويصف جماله الصادي ويايجابيته الحب من تعب ، وسهر وذبول وعذاب ، وأكثر مايتجه الوصف الحسي الى بياض الجسم واشراق الوجه وسواد الشعر ، واعتدال القامة ، ونحول الخصر ، وثقل الاردان وحلاوة الريق .... وما الى ذلك من ضروب الحس المادي الذي تختلف الآراء والأذواق في تقديره وتحديده ، باختلاف العصور والبيئات (٢)

وتبدو هذه المعاني الغزلية وصورة المرأة المحبوبة في هذا الجانب من شعره تبدو جلية واضحة باستعراضنا للنماذج منها مايلي :

مظلومة الجيد لي تشبيهه عنقا
مظلومة الريق لي تشبيهه ضربا
كأنها الشمس يعيي كف قابضها
شعاعها ويراه الطرف مثقوبا
صريع مقلتها ، مستهل دمعتها
فقيل تكسير ذاك الجفن واللمس
غريدة لو رأتها الشمس ماطلعت
ولو رآها قضيب البان لم تمس

---

(١) النقد المنهجي عند العرب د محمد مندور دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٢ ص ٢١١

(٢) المتنبي وشوقي - عباس حسن ص ٢٦٠ - ط دار المعارف ١٩٦١

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ماضـــــاق قبلك خلخـــــــال على رشـا

ولاسمحـــت بديبـــاج على كاســـس

××××××××××××××××××××

ليـــالي بعـــــد الظاعنيـــــن شـــــكول

طـــوال وليـــل العاشـــقين طويـــــل

مراقبة دمـــــعي من بعي من الوجـــود مانيـــــا

من الوجد بي والشوق لي ونهـــا خلـــف

××××××××××××××××××××

حبيب كـــأن الحســـن كـــان بحـــــــــه

تآثـــره أوجـــار في الحســن تاســـه

تحـول رياح الخـــط دون ســـــــبانـــه

وتســـــبي لـــــه من كل حي كرائمه

××××××××××××××××××××

ترنـو الـــى بحـــــين الظـــــبي مجهشـــــة

وتصـــح الطـــل فوق الورد بالدمـــــم

أظبيـــة الوحـــش لـــولا ظبيـــــــة الأنـــــس

انا لما غدوت بجـد في الهـوى تحـــس

ولاســـــابيت الثـرى والمـزن مخلفـــــــــة

دمعا يذيقه من لوعـــــة نفســـــــي

××××××××××××××××××××

لثـاة تســـــاوي متدمـــــــا وكلامهـــــا

ومبسمها الدري في الحسن والنظـــــم

أعارتـــي سقم جفنيـــــــه وحملـــــــني

من الهوى ثقل ماتحـــــوي أزرارة

××××××××××××××××××××

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

[illegible] ريح ترجى سلامته

الا فؤدا رمته عيناها

تبل خد ... ى كلما ابتسمت

من قطر برقة ثنايا

بدت قمرا ومالت ... غصن بان

وناحت عنبرا ورنت غزالا

×××××××××× ××××××××

باتت بخد ... ز عوية لها كفل

يكاد عند القيام يقعدها

××××× ××××××××××××××

فلم أر بدرا ضاحكا قبل وجهها

ولم تر قبلي ميتا يتكلم

ظلوم كمقتليها لصب كخصرها

ضعيف القوى من نحلها يتظلم

××××××××××××××××××

نمضت ورد صبغ الحياء بياضها

لونى كما صبغ اللجين العسجد

فرأيت قرن الشمس في قمر الدجى

متأودا غصن به يتأود

عدوية بدوية من درا

سلب النفوس وثار حرب يوقد

××××××××××××××××××

أما عن علاقته بخوله ومادار حوله من أقوال [1] فإذا تركنا ديوانه يتحدث بصدق . فلن نجد سوى رثاء لثلاثة نساء لم

---

(١) انظر طه حسين مع المتنبي، محمود شاكر المتنبي ص ١٣٠ ط القاهرة ١٩٧٦ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

صلة بأميره وحبيبه سيف الدولة من أمه وأخته الصغرى والكبرى وأكثر هذه المرثيات جوده وحرارة عاطفة ومدى شعوري في بلاشك مرثيته في خولة والتي مطلعها :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب
كناية بهما عمن أشرف النسب

ومما جاء في هذه المرثية من أبيات تؤكد المودة والحزن العميق وتقريظها بمعان مقتدرة لم تحط بها غيرها ممن رثى كقوله فيها :

ليت طالعة الشمس غائبة
وليت غائبة الشمس لم تغب ... الخ

عامر الا اعتراف بفضل القتيدة عليه لما لها من أياد عليه كما ذكر في قوله :

ولا ذكرت جميلا من صنائعها
الا بكيت ولا ود بلا سبب

زد على ذلك أنه قال هذه القصيدة بعد ارثائه لسيف الدولة (ولأن خولة كانت امرأة ذات مكانة عالية ، لها أياد على الشاعر وهذا لايعني بالتأكيد أن يكون بينهما حب خالد ولاستطيع أن نتخذ من طريقته في مرثية منهما قاعدة يجب أن يتبعها في مرثية أخرى بعد سنوات عديدة[1] .

ومن هنا نستطيع القول - وعلى أساس من شعره - برفض هذه الدعوى حبه لخولة أخت سيف الدولة غير أننا نطمئن الى القول بأنه أحب ومارس العشق وعانى منه معاناة المحب الواثق وعبر عنه كأصدق مايكون التعبير عن عاطفة حب حقيقية بعيدة كل البعد عن التكلف والتصنع والتقليد وهذا ما اتضح فيما قدمناه من شعره انصادق التجربة والتعبير .

---

(١) المثال والتحول ص ٩٦ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com